

البنية في التعبير / الفعل والمصدر

يستعمله استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى: {واذكر اسم ربك وتبَّئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} [المزمل: ٨] فإنه جاء بالفعل (تبَّئِلْ) غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بَّئِلْ) وذلك أن مصدر تبَّئِلْ هو (التبَّئِلْ) فإن مصدر (تَفَعَّلَ) يكون على (التَّفَعُّلِ) كتَعَلَّمَ تَعَلُّماً وتَقَدَّمَ تَقَدُّماً. وأما (التبَّئِلْ) فهو مصدر بَّئِلَ لا تَبَّئِلَ فإن (التفعُّل) هو مصدر (فَعَّلَ) كَعَلَّمَ تعليمًا وعَظَّمَ تعظيماً. وكان المتوقع أن يقول (وتبَّئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) غير أنه لم يقل ذلك. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين مَعْنِي التبتل والتبتيل، وذلك أن تَبَّئِلَ على وزن تَفَعَّلَ و (تَفَعَّلَ) : يفيد التدرُّج والتكلف مثل: تجسس وتحسس وتبصَّر وتدرَّج وتمشَّى وَغَيْرَهَا، فإن في تجسس وتحسس وبقيّة الأفعال تدرُّجاً وتكلفاً. ألا ترى أنَّ في (تبصَّر) من التدرج وإعادة النظر والتكلف ما ليس في (بصر) ، وفي (تمشَّى) من التدرج ما ليس في (مشى) ؟ وأما (فَعَّلَ) فيفيد التكرير والمبالغة وذلك نحو: كسر وكسَّر، فإن في كسَّر المضاعف من المبالغة والتكرير ما ليس في كَسَرَ الثلاثي فقولك: (كسَّرت القلم) يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت: (كَسَرْتُ الْقَلَمَ) فإنه يفيد أنك كسرتة مرة واحدة. كذلك قولك: (قَطَّعت اللحم) فإنه يفيد أنك جَعَلْتَه قطعة قطعة بخلاف ما إذا قلت: (قطعت اللحم) بلا تضعيف فإنه يفيد أنك قطعتة مرة واحدة. وتقول (مَوَّتَ الإبل) إذا كثر فيها الموت ولا يقال: (مَوَّتَ البعير) لأنه ليس في موت البعير تكثير. فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكرير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل (تبَّئِلَ) فقال: (وتبَّئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) لم يفد غير التدرج وكذلك لو قال (وبَّئِلْ نَفْسَكَ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) لم يُفدْ غير التكرير. ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول: (وتبَّئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً وَبَّئِلْ نَفْسَكَ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد وهذا باب شريف

جاء في (التفسير القيم) : "ومصدر تبَّئِلْ إِلَيْهِ: (تبَّئِلْ) كالتعلُّم والتفهم ولكن جاء على (التفعُّل) مصدر (فَعَّلَ) لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدرج والتكليف والتعلُّم والتكرير والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل: بَّئِلْ نَفْسَكَ إِلَى اللَّهِ تَبْتِيلاً وتبَّئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز". وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبَّئِلِ والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدرج في العبادة وانت بالکثرة. وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً ثم يأتي بالصيغة الدالة التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له. فهو وضعها وضعاً تربوياً

ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجيباً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد فقال: (وتبَّئِلْ) ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة لأنها الحالة

الثابتة المرادة في العبادة. أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.